## صدر عن ( المدى ): عن المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي

# الرواية العراقية من الريادة إلى النضج

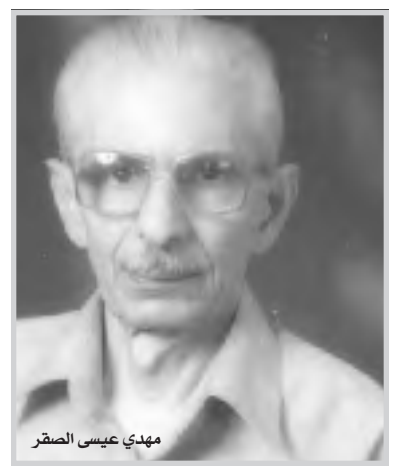
مهدي عيسى الصقر

فؤاد التكرلي

**فاضل ثامر**

إذ لا يمكن موضوعياً دراسة المهاد التاريخي والثقافي والروحي لنشوء الرواية العربية، كجنس أدبي متميز في هذا العصر، بمعزل عن نشوء الرواية العراقية، بل يمكن القول، وبثقة تامة، إن عملية تشكل الرواية العربية كانت تتم وتنضج في مناخات متقاربة، وإن كان ذلك بمستويات متباينة من النضج والأصالة، في أوقات متقاربة نسبياً، في عدد محدد من الأقطار العربية، وبشكل خاص في مصر وسورية ولبنان والعراق.

**البدايات**

فإذا ما كان مؤرخو الرواية العربية ونقادها يتأرجحون في تحديد نشأة الرواية العربية بين رأيين أساسيين، أولهما يرى أن الرواية العربية هي جنس أدبي جديد تماماً على الأدب العربي نشأ نتيجة الاحتكاك الثقافي بالغرب، وبذا يقطعون جذوره عن موروثنا الأدبي الكلاسيكي والشعبي. وثانيهما يرى أن الرواية العربية هي امتداد طبيعي للموروث النثري العربي المتمثل في ألوان نثرية كالسير والأخبار والحكايات الشعبية والمقامات وغيرها، وتبعاً لذلك يحاول الدارسون تحديد «شهادة ميلاد» الرواية العربية، وهو ما يفعله أيضاً وإلى درجة كبيرة من التشابه في السياقات والحيثيات.

**الدارسون العراقيون**

إن دارسي الرواية العراقية يشيرون إلى بدايات تراثية ذات طبيعة «مقامية» تؤرخ للرواية العراقية، منها «مقامات أبي الثناء الألوسي» الصادرة عام ١٩٥٦، وكذلك نص أحدث هو «الرواية الايقاظية» لسليمان فيضي الصادرة عام ١٩٩١، حيث يذهب أحد الدارسين إلى أن في «الرواية الايقاظية» ما يبرر وصولها بمقامة الآلوسي في نواحي الروح والتفكير والمادة السجعية المتكلفة، مع ملاحظة التوسع في اللون المحلي، واخضاع القصة لغرض الاصلاح الاجتماعي. ومن جانب آخر، هناك من يقرن نشوء الرواية العراقية بأعمال روائية أحدث، تمتلك الكثير من ملامح الرواية الفنية، ونعني بها أعمال محمود أحمد السيد (١٩٠٣ ١٩٣٧) وبشكل خاص أعماله الروائية المبكرة، «في سبيل الزواج» ١٩٢١، و«مصير الضعفاء» ١٩٢٢، و«النكبات» ١٩٢٤ وأخيراً عمله الروائي الأنضج «جلال خالد» ١٩٢٨. وكما نرى فإن وجه التشابه كبير جداً بين ظروف نشأة الرواية العربية في كل من مصر والعراق وسورية ولبنان. لكن يجب الاعتراف هنا بأن الرواية العربية في مصر وسورية ولبنان كانت السبّاقة قليلاً في هذا المضمار، وكان لها الفضل -إضافة إلى عوامل أخرى - في لفت أنظار الأدباء العراقيين إلى الجنس الروائي آنذاك.

**علامات على الطريق**

ولئن كانت أعمال محمود أحمد السيد الروائية المبكرة بسيطة وساذجة إلى حد ما، وتعتمد بنية سردية تقليدية وتقريرية، ويسود فيها الراوي الكلي فإن عمله الروائي «جلال خالد» الصادر عام ١٩٢٨ الذي كتبه قبل ذلك التاريخ بعام واحد على الأقل يشكل نقلة مهمة في حركة تأصيل هذا الجنس الأدبي الحديث. ولم يشهد العقدان الثاني والثالث من هذا القرن - فترة ما بين الحربين - إلاّ ظهور نماذج روائية محدودة لم تستطع أن ترتقي بالبناء الفني للرواية العراقية إلى مرتبة فنية متقدمة. فلا نكاد نجد إلى جانب محمود أحمد السيد سوى قلة من الروائيين، ربما يتقدمهم في الأهمية «ذو النون أيوب» التي أصدر رواية «الدكتور ابراهيم» عام ١٩٣٩، وعبد الحق فاضل الذي أصدر رواية «مجنونان» في العام نفسه (١٩٣٩) وهذا لا ينفي ظهور أعمال روائية مختلفة لعدد من الأدباء العراقيين، وإن لم تلفت النظر إلى أهميتها حينذاك. ورواية «الدكتور ابراهيم» لذي النون أيوب من الروايات المهمة خلال هذه المرحلة. ومن المؤسف أن هذه الرواية لم تنصف من قبل النقاد الدارسين، ونُظرَ إليها بالطريقة نفسها التي نظر فيها إلى أقاصيص أيوب ورواياته الأخرى. فالرواية تستند إلى بنية متقدمة نسبياً، وإن كانت تبدو في المظهر معتمدة على السيرة الذاتية، والشكل الرسائلي في الصوغ الروائي. وتتألق خلال هذه المرحلة أيضاً بخصوصيتها وشفافيتها رواية «مجنونان» لعبد الحق فاضل (١٩٣٩) التي ترتكز حبكتها على «لعبة» ذكية وبارعة، وبشكل أكثر تحديداً «لعبة اختباء» يمارسها البطلان، صادق شكري وهو كاتب وصحفي ومحامٍ مشهور، وصفية سعدي وهي كاتبة متحررة. وتعتمد الرواية أو تكاد على الحد الأقصى من صدمة التعرف في الدراما الأرسطية إلا أن المؤلف لا يحاول الوصول إلى نتيجة سريعة، يحسم فيها الموقف، بل نراه أكثر ميلاً للدوران والمواربة والافادة من تقنية «إبطاء الحديث»، والمفارقة، والتلغيز «البوليسي» أحياناً. ومؤلف «مجنونان» ينجح إلى حد كبير في خلق لغة رشيقة ومشوقة وساخرة تختلف إلى حد كبير عن تلك اللغة المتجهمة «الجادة» التي عرفناها سابقاً في روايات «جلال خالد» و«الدكتور ابراهيم» وقبلها في «الرواية الايقاظية». وفي الوقت الذي نجد فيه أن «مجنونان» كانت قد منحت الرواية العراقية - خلال فترة ما بين الحربين - دماً جديداً، وكشفت عن أفق جديد للتجربة الروائية، فقد كانت هي الأخرى تعاني من بعض الأمراض الخطيرة التي لم تتخلص منها. فهي أولاً مبنية بطريقة محكمة، وتلعب فيها «المصادفة» دوراً كبيراً، وتمتلئ بشخصيات خيالية لا يمكن أن تنتمي إلى واقع عراقي ملموس، كما أن المؤلف غالباً ما يقتحم عالم الرواية والشخصيات باشارات وايحاءات وعبارات تضعف من تلقائية التجربة الروائية. وإذا ما افترضنا بعد هذا أن حركة الريادة في الرواية العراقية قد استطاعت في فترة ما بين الحربين أن تؤصل لهذا الجنس الأدبي الجديد، وأن ترسي الدعائم التي سيقام عليها بالضرورة صرح روائي متين، فإن افتراضنا هذا سرعان ما سيتهاوى. إذ ظلت الرواية العراقية شبه غائبة خلال ما يقرب من عقدين من الزمن. وربما أدى قيام الحرب العالمية الثانية إلى إحداث خلل في النمو المتوقع - أفقياً وعمودياً - للتجربة الروائية الوليدة. وهكذا لم تصدر خلال الأربعينيات إلا روايات محدودة وغير ذات أهمية كبيرة، ومنها على سبيل المثال رواية «اليد والأرض والماء» لذي النون أيوب (١٩٤٨)، ورواية جعفر الخليلي «في قرى الجن» (١٩٤٨)، ورواية عبد الله نيازي «نهاية حب» (١٩٤٩). كما لم تسهم الخمسينيات في نهوض الفن الروائي، على الرغم من الازدهار الملحوظ للقصة القصيرة، على يدي عبد الملك نوري وفؤاد التكرلي، ولحركة الشعر الحر على أيدي بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي. وجاءت الأعمال الروائية القليلة التي صدرت خلال هذا العقد امتداداً باهتاً لمرحلة سابقة في التقنية الروائية. ويمكن أن نذكر من روايات الخمسينيات «أناهيد» لعبد الله نيازي (١٩٥٣) و«شيخ القبيلة» لحمدي علي (١٩٥٢) و«قصة من الجنوب» لمرتضى الشيخ حسين (١٩٥٣) و«الأخطبوط» لأنيس زكي حسن (١٩٥٩)، و«التائهة التافهة» لحازم مراد (١٩٥٨) و«سبي بابل» لعبد المسيح بلايا (١٩٥٥) و«الخالة عطية» لأدمون صبري (١٩٥٨) وغيرها. ومن الملاحظ أن أغلب هذه الأعمال الروائية لم تترك أثراً واضحاً في مسيرة الرواية العراقية.

**تنويعات ناضجة في الستينيات**

ويمكن القول إن الرواية العراقية لم تستطع حتى مطلع الستينيات أن تؤكد حضورها، أو تفوقها فنياً ورؤيوياً. وشهد النصف الثاني من الستينيات المخاض الابداعي الحقيقي للرواية العراقية، حتى بات بالإمكان اعتبار الستينيات هي التاريخ الحقيقي لولادة الرواية الفنية الناضجة في الأدب العراقي الحديث. وعلينا أن نعترف أن الروائي الذي كان له الفضل الأكبر في توكيد هوية الرواية العراقية خلال هذه المرحلة لم يكن روائياً ستينياً (بالمصطلح الفني الشاسع او الشاسع ؟آنذاك)، وإنما كان قاصاً خمسينياً معروفاً، ذلك هو القاص والروائي «غالب طعمة فرمان» الذي أصدر خلال الستينيات روايتين مهمتين هما «النخلة والجيران» (١٩٦٦) و«خمسة أصوات» (١٩٦٧)، وقد استطاع هذا الروائي أن يرسي بفنه الروائي تقاليداً راسخة للفن الواقعي في(١٩٧٢). إلا أننا يجب أن نعترف أن التجربة الستينية قد نجحت في تجاوز الاطار التقليدي في البناء الروائي، والتخلص من الأساليب البدائية والفوتوغرافية وتجديد اللغة الروائية، والاهتمام بتعدد الأصوات والضمائر والحوارات والتخلص من بعض العناصر التي كانت تثقل الرواية، وتؤدي إلى ترهلها واضطرابها. ويبدو أن تأثير الستينيات في مجال الرواية لم يتضح إلا في العقد السبعيني أولاً في الثمانينيات، عندما بدأت بالظهور مجموعة من الأعمال الروائية الناضجة منها روايات عبد الرحمن الربيعي، ويوسف الصائغ، وجهاد مجيد، وأحمد خلف، ونجيب المانع، وسميرة المانع، وعبد الرزاق المطلبي، وعبد الأمير معلة، وعزيز السيد جاسم، وشمران الياسري، وعبد الخالق الركابي وغيرهم. وبعد: هل برر الروائي العراقي الثقة بمسيرة سبعة عقود على الأقل من عمر التجربة الروائية؟ وهل يقف اليوم بثقة أكبر وهو يستشرف آفاق العقد الأخير من الألف الثاني للميلاد؟ في اعتقادي أن الروائي العراقي اليوم يتحمل مسؤولية خاصة ودقيقة. فهو ابن تراث روائي متنوع وشامل وغزير، وهو إضافة إلى ذلك يمتلك خبرة الرواية العربية والعالمية بكل تنوعاتها وتجاربها، ولم يعد ذلك الطفل الذي يحبو. فلقد تجاوز مرحلة الطفولة والمراهقة، وأصبح ممتلكاً لناصية اللغة والتقنية والخبرة والرؤيا، وامتحنته الحياة امتحاناً قاسياً. ولذا فنحن نتطلع إليه بثقة أكبر، وكلنا تفاؤل بأن انجازاته القادمة تشكل إضافة نوعية خاصة للرواية العربية التي تمتلك الكثير من ملامح الابتكار والتجديد والتجريب. وما يدفعنا إلى هذا التفاؤل هو النضج الملموس لتجربة القصة القصيرة خلال الأعوام القليلة الماضية، وتمرس القاص العربي بآليات السرد القصصي والروائي بطريقة تنم عن نضج ووعي واجتهاد. والروائي العراقي مطالب اليوم بتوظيف خبراته هذه في خلق منحى روائي جديد عن طريق فهم أعمق لدلالة التجربة الروائية نفسها، واتصالها العميق بالصراعات الاجتماعية والثقافية في المجتمع، والتوغل عميقاً في مواجهة البنية الاشكالية للمجتمع والإنسان، بعيداً عن الدوران في حلقة الهموم الاصطناعية الملفقة التي لا يمكن لها أن تخلق فناً عميقاً وأصيلاً. فالتجربة الروائية الكبيرة هي تلك التجربة التي تكشف عن الموقف الاشكالي للإنسان إزاء الواقع، وتومىء إلى رؤيا مبدعها وامتلاكه لقضية إنسانية واجتماعية محددة.

> أين تقف الرواية العراقية اليوم، وهي تضع خطوتها الأولى على أعتاب العقد الأخير من هذا القرن، وتستشرف آفاق الألف الثالث للميلاد؟ وأين تقف هذه الرواية بين التجارب الروائية العربية الحديثة؟ وما الذي يؤمل تحقيقه في المستقبل؟ من السهل دائماً تقديم مراجعة شاملة وموضوعية لمسيرة الرواية العراقية التي جاوزت سبعة العقود دونما صعوبات. فهذه الرواية ليست وليدة عقد أو عقدين من السنين، كما هو شأن بعض التجارب الروائية العربية المحلية، بل هي تضاهي في تاريخها وعمرها الرواية العربية في نشأتها ومولدها وسيرورتها.

# الإبـــــداع والتسلط التربـــــوي

**موسى الخميسي/ روما**

نشهد توسعا اخذ يطال ثقافات العالم وحتى الدول الأكثر عراقة واستقرارا وحيوية.اننا أمام حالة بدأت تأخذ طابعا كونيا وتضع لها أهدافا لإشاعة الثقافة العالمية والتنميط الثقافي الذي يفرض نفسه من الخارج من خلال وسائل وأساليب لم تعد خافية على احد، فالعالم يعيش حاليا طفرة تقنية فعلية منقطعة الصلة بكل ما سبقها ، في مجال نظم المعلومات مما جعل العالم بمثابة مصنع جديد تتبوأ فيه صناعات المعلومات الذهنية قمة الهرم الصناعي . لقد أصبحت التقنيات بإمكاناتها الهائلة مصدر قوة وسلطة لا نظير لها على صعيد التحكم الهائل بتفاعل دولي يبلغ غاية التعقيد.

وكما هو متعارف عليه فان مناهج التعليم هي جزء من مسعى عام تساعد البيئة على بلورته، ذلك ان إصلاح مناهجنا التربوية التي ظلت تنطوي على مزيج من التناقض والغربة والتشويه والسلفية وقيم الثبات والترسيخ، يمكن الا يكون له مفعول اذا لم يكن هناك شعور عام بالمتطلبات التي تقتضيها عملية النهوض التي يعيشها شعبنا العراقي في مرحلة البناء الجديد. ولا غرابة في ان يكون إصلاح مناهج التعليم التي كان يتم التخطيط لها في المراكز الحزبية الفاشية التي كانت تتعامل مع هوية الشعب كما لو كانت عاملا ثابتا لا يقبل التطور، تتطلب الانخراط كليا في روح العصر والإصرار على مبدأ التكامل بين المدرسة والبيئة العراقية الجديدة، حتى لا تتم عملية إفساد الثانية ما تقدمه الأولى، لتكون مناهجنا التعليمية الجديدة قادرة على تكوين مواطن مشبع بهويته ومتمكن من المعارف الجديدة التي تمر بمراحل متغيرة، تجعله قادرا على التفاعل مع محيطه ومع عصره، وان يتم إلغاء المبدأ القديم الذي يعتمد حكم الأيديولوجية التي ترى التراث والفكر الحزبي شيئا واحدا.

المطلوب هو إنقاذ التنوع الثقافي في مناهجنا في واقع تهدده الرتابة والاتساق والسلفية الفكرية، والمطلوب التعدد والتفاعل ، والابتعاد عن التصنيفات الطوطمية التي يمكن تجاوزها من خلال:

١- تعزيز المشاركة المبدعة في الحياة الثقافية العامة للمجتمع العراقي.

٢-مراعاة البعد الثقافي وتنوعاته في أي عملية للتغيير.

٣-توجيه الحوار بين الثقافات الوطنية والعالمية نحو أشكال جديدة من التضامن

٤-الخروج من التجميد والتمجيد في مواقف الأصالة والتراث والهوية والقيم، بالتنوع والتغير تبعا لحركة التاريخ الذاتية الداخلية لمجتمعنا وللتفاعل مع بقية الثقافات والأمم.

٥-إطلاق حرية الحركة والاستكشاف للذات والمحيط، وتدريب الحواس والمهارات، واطلاق حرية التجريب.

٦-اعتبار مبدأ اكتساب الثقافة والتعبير عنها باعتباره غاية كل تنمية.

٧- تقييم الحوار بين حاضرنا وماضينا على أساس المنهج العلمي الخالي من الشوائب والرؤية الأيديولوجية.

٨- إقرار القطيعة مع الفهم التلقيني للتراث الذي أضحى ثابتا وبنيويا في مناهجنا

٩- الدمج بين برامج التعليم العام وبين الحياة واحتياجاتها وتحدياتها.

١٠- الابتعاد عن التأليه والتسلط القومي والديني والثقافي على القوميات والاثنيات والثقافات الشريكة في تركيبة المجتمع.

ان التعليم يمثل تحديا أساسيا لمستقبل العراق مثله مثل أي تحديات اخرى، ونحن في هذه المرحلة بحاجة الى قوة عاملة كبيرة العدد من خيرة الكفاءات المتخصصة، فهذه القوة ستكون موازية لأهمية ثروة البلاد المعدنية. عليها ان تشهد عملية إصلاح شامل لبرامج التعليم، لان النظام التعليمي عندنا يكشف عن تراجع كبير في المهارات الأساسية في إعادة تأهيل الكوادر، يضاف اليها الأوضاع البائسة للمدارس التي تتدنى بها المستويات المطلوبة من الجوانب الصحية والترفيهية ، كما انها لا تلبي معايير ابسط الخدمات التعليمية مع علمنا بان مهمة التربية تعني الاعتراف بأنها ظاهرة معقدة تشتمل على مجموعة من العناصر من بينها الرعاية الصحية والتربية السليمة وتنمية المدارك الأولية وتنفيذ البرامج التي تؤكد على نوعية التعليم الصحيح.

ويزداد في تفاقم الوضع التعليمي في العراق، عدم توفر المخصصات التي تحتاج اليها هذه المدارس، وضعف ما يحصل عليه المدرس من رواتب، وعدم وجود نظام المساعدات تكافئ به الطلبة الفقراء، وعدم وجود خطط لتحسين كفاءات المدرسين من خلال اطلاعات ودورات تعليمية مكثفة في الداخل والخارج، وتخفيف حدة البيروقراطية في معظم مدارسنا، وتغيير الهيكل الثقافي لكل مدرسة، والسعي لتشجيع المدارس على إبقاء أبوابها مفتوحة بعد ساعات الدراسة لتقديم برامج تأهيلية وتعليمية وترفيهية، كما هو معمول به في الكثير من بلدان العالم المتقدم.

اننا حقا بحاجة فعلية لبناء مدارس من طراز جديد وجعلها جزءا من نظام تعليمي مفتوح يمتلك مقومات التفوق، لاننا أمام تحد يقضي دعم الأسرة في تربية أولادها ، وفي نقل قيم حضارتنا وثقافتنا منذ البدايات الأولى حين يجلس الطفل على منضدته.

ان الطفل العراقي بكونه باحثا مثابرا على المعرفة، وهو ككل طفل في العالم يحاول ان يعرف منذ اللحظة التي يتمكن فيها من تثبيت نظره على إنسان او شيء يتحرك ويتابعه. فالمهمة الكبرى لثقافة الطفل العراقي تتمثل في تهيئة الأجيال لابتداع أصالة عراقية مستقبلية تركز على إعادة الزخم والدينامية والتماسك، من خلال التفهم العميق للتراث وتمثله في الوجدان ، كما تنطلق نحو فهم حقيقي لحقائق ومتغيرات العالم المعاصر( عالم ما بعد التكنولوجيا) بكل معتقداته وأساليبه المتطورة وتفاعلاته وتحدياته وإمكاناته الهائلة من اجل الإعداد للإسهام في صناعته.

عالم الطفولة هو عالم النقاء البريء الذي لم تقتحمه خبرات الحياة بتجاربها المريرة كما يراها التربويون الإيطاليون، فهي أساس التنمية البشرية ، وهي وثيقة الصلة بعملية الإبداع التي تنشدها جميع المجتمعات الإنسانية. وعملية تنشيط خيال الطفل هي الركيزة الأساسية للارتقاء بالمهارات الإبداعية كسمة حضارية وثقافية ، اذ يرى العديد من أساتذة التربية وعلم النفس الإيطاليين ،ان ثمة علاقة إيجابية بين ذكاء الطفل وقدرته على الإبداع، وبما ان التنشئة الاجتماعية تحتل مكانة هامة في سنوات الطفولة، تتم خلالها عملية الانتماء الاجتماعي بكل خصائصها وديناميكاتها الأساسية لتتشكل الهوية الذاتية التي يلعب المحيط الاجتماعي بمختلف مثيراته ووسائطه الدور الحاسم فيها. فان نمو ثقافة الطفل لا تقتصر على تكوين هويته وشخصيته ، بل تتعداه الى جعله مبدعا.

ويوصي هؤلاء الاساتذه، بضرورة التخلي نهائيا عن نظام مد الطفل بثقافة الذاكرة(الحفظ والتلقين) كما هو متبع في مناهجنا الدراسية منذ الصفوف الأولى وحتى الجامعية، والاهتمام بمتابعة مواهب الطفل وصقل الملكات الإبداعية لديه باعتبارها أساسا للتكوين المعرفي في حياته المستقبلية، فالاعتماد على الممارسة العملية والميدانية ، تتيح للأطفال القدرة على النسج من خيالهم، ذلك لان الطفل يمتلك موهبة الخلق والتعبير وعلى العائلة والمدرسة دعم وتشجيع مهاراته دون قهر او إجبار او تلقين.

ويوصي التربويون الإيطاليون بالابتعاد عن تأنيب الأطفال ولومهم على إبداعاتهم الخاطئة، وعدم تعرضهم للحماية المبالغ فيها ، او الإسراف في التدليل، والتعامل مع أسئلة وخيال الأطفال باحترام، وإظهار الاهتمام المباشر بما يقدمونه ويطرحونه ويتساءلون حوله، لاجل تنمية إحساسهم بالتذوق الجمالي من خلال لفت وتوجيه انتباههم الى كل ما هو رائع ومنسق ومنتظم داخل البيت او في دار الحضانة والمدرسة والشارع او في موقع اللعب والطبيعة، فعملية الارتقاء والتهذيب، هي صناعة حساسة لاعداد أجيال مبدعة للمستقبل، على اعتبار ان الإبداع او التجديد او الابتكار، نزوع إنساني في جميع المجتمعات مهما كانت مواقعها في سلم التطور الحضاري ، فالشعوب تختلف في درجات الإبداعية وليس في مبدأ الإبداع المضاد للتخلف.

من الأهمية بمكان معرفة التسلط على مختلف مستوياته، فهو يطفئ الرغبة التي تتعاظم يوما بعد آخر في التعبير عند الاطفال، بل انه قادر في كثير من الحالات على ان يلغيها ويدمرها ليسير الطفل في مراحل متقدمة من عمره في مسارات ظواهر تتسم بالمرضية، كما انها تخلق عنده إحباط روح الاستقلال والتمكن في معرفة العالم الذي حوله. الطفل لا يعنيه المغزى او المعنى من الوجود بقدر ما تعنيه تلك العلاقة المادية بينه وبين العالم الخارجي في درجات توازنها مع جسده وحواسه، لان الطفل في حالة ذهنية تتميز بعدم القدرة على إدراك الفارق بين الواقع والخيال، او بين الذات والموضوع، كما انه عاجز عن التمييز بين ذاته والأشياء التي تحيطه، فالمكان والزمن والسبب كلها أمور بعيدة عن فهم الطفل وإدراكه خاصة في مراحله المبكرة، كما ان التقدير الأخلاقي للسلوك لا يولد مع الطفل، وهو بالتالي لا يستطيع أدراك القيم الأخلاقية المتعارف عليها بيننا كالكذب والصدق والأمانة والسرقة.. الخ فالطفل وهو ينتقل من سن الى سن، لا يستطيع أفراد عائلته إدراك ووعي مراحل الانتقال، يعني إدراك الحاجات الجديدة التي تولد بفعل النمو، وحين يجد عدم تجاوب ، يقود نفسه نحو الانعزال وتخمد حالة الإبداع عنده شيئا فشيئا.

اعتبار السنوات المبكرة في حياة أي منا هي الأكثر حراجة ففيها تبدأ عملية تشكيل المراحل الأساسية للجهاز النفسي ، وتتضح عناصر التفكير وتكتسب الشخصية قوامها وانسجامها، ومحيط كل من العائلة والمدرسة والبيئة يلعب دورا كبيرا لا يمكن تعويضه في مراحل لاحقة بحياة الطفل وهو يدخل في علاقة مباشرة لمعرفة العالم .

لو طرحنا التساؤل الآتي: ما المشكلات التي تحول دون تقدم ظاهرة الإبداع عند العديد من أطفالنا ؟ فان الجواب سيكون على النحو الآتي. الإبداع كما هو عند الكبار مرتبط بعوامل ومؤثرات كثيرة ومتباينة، فانه أيضا مرتبط لدى الصغار بذات العوامل. المشكلة هي موقفنا ككبار مع هموم ورغبات وقدرات وإمكانيات الأطفال، فبعضنا يتجاهلها والبعض الآخر لا يفهمها، واخر يقمعها وهكذا. التعرف على إبداعات الأطفال من قبل الشعوب المختلفة ومن قبل الآباء والأمهات والمدرسة والتلفزيون، يلعب دورا مصيريا في تنمية قدرات الطفل الإبداعية على النحو الذي يجعلها نقاط انطلاق لبناء شخصيته القادرة على إبداع الحياة في صورها المتطورة بشكل دائم. أصبحت العديد من دور الحضانة والمدارس الابتدائية في العديد من المدن الإيطالية بمثابة ورش إبداعية للمعرفة بكل تنوعاتها التشكيلية والموسيقية والمسرحية. فمن اجل إشاعة الروح الإبداعية يمكن تجاوز العديد من أخطاء التنشئة التربوية المنزلية والمدرسة، فالأغنية السيئة التي يستمع اليها الطفل او المشهد التلفزيوني السيئ يصعب محوهما،علينا ان ندرك بان ملكة الخيال عند صغارنا تفوق تصوراتنا ، علينا تغذيتها ، فالطفولة اينما كانت لا يمكن لها ان تزدهر وتتطور إبداعيا خارج فضاءاتها التربوية السليمة.

المجتمع هو الذي يتحمل المسؤولية التربوية، فضياع المواهب المبدعة تتحملها عملية التربية المتعاقبة التي تجبر الفرد على قبول مفاهيم وتصورات وآراء اجتماعية تقف كمعادل مضاد للإبداع فالتخلف له آليات قسرية تنبع من خلال التنشئة والتربية والإعلام وسلطة العائلة والمدرسة التي تشترك جميعها كحلقة تخلف بإخماد جذوة الإبداع. ومن المؤكد عدم وجود مستحيل أمام قدرة الإنسان الفاعلة وهذا يتطلب جهدا خارقا لترسيخ القيم الإبداعية أمام حالة الجهل والتخلف التي تعتبر في كثير من الحالات أنها مسلمات أساسية في عملية البناء.

نحن امام مقولات تقليدية أصبحت جزءا من ارثنا الرجعي في التفكير، تبدأ من مخاوف المنافسة الغربية والتغلغل الثقافي الغربي المتزايد، لتنتهي بالحديث عن الفراغ الثقافي، والأمن الثقافي ، والتحصين الثقافي العربي ضد الغزو الثقافي. وكان سلم الأوليات على مدار عقود من الزمن هو الحفاظ على الأصول( الخلدونية) في التربية، عوضا عن اكتساب الوعي الجديد بالتعمق في الخطط والدراسات لتأسيس ثقافة تربوية جديدة ترتكز على أسس علمية وفنية حديثة تطمح في الوصول الى التخصص. من خلال توسيع الاهتمام التركيز على الأبعاد الفردية عبورا الى الأبعاد الوطنية والقومية والعالمية، وطرح المفاهيم الشمولية لثقافة الأطفال بجميع وسائطها ومجالاتها، المسرح، السينما والتلفزيون، الألعاب، الفنون التشكيلية والموسيقية، علينا ونحن نعيد التفكير بمناهجنا التربوية، إدراك ما يشهده العالم حاليا من طفرات فعلية في انتشار وتغلغل الوسائط الثقافية للكبار والصغار على السواء.

> النقاش الجاري حاليا في عدد من الدول العربية حول مراجعة وتكييف المناهج التعليمية مع متطلبات التطور، يطرح ضرورة مراجعة سريعة وحاسمة للتثبت من مردودية العملية التربوية وجدواها، لاننا أمام حالة تفرض الوعي بأهمية الوظيفة التربوية في بنية المجتمع وحركيته ومصيره على الصعيدين الداخلي والخارجي في آن واحد. لم يسبق للبلدان العربية في تاريخها الحديث ان وصلت الى هذه الدرجة العالية من الوعي ولو على الصعيد النظري بأهمية وظيفة التربية الثقافية في صناعة الهوية. فالسائد حاليا يتمثل في عملية تشخيص الواقع الراهن لتربية الطفل وثقافته في مختلف مجالاتها بما له وما عليه، بإنجازاته وثغراته، وصولا الى تلمس مقومات العملية التربوية الجديدة الفاعلة والمسايرة للتحولات الدائرة في العالم.